الإبداع سبيل تقدم الأمم

الإبداع مظهر من مظاهر التحديات التى ظهرت على الساحة التربوية منذ وقت بعيد، وهو يستهدف صناعة البشر على نحو يجعل منهم صانعى حضارة تفيد البشرية جمعاء، ومن هنا ظهر المفكرون والمبدعون فى مجالات السياسية والاقتصاد والفلسفة والاجتماع والفن وغيرها من البنى المعرفية لكى توجه مسارات الحياة فى عقود متلاحقة، الأمر الذى كان من شأنه تطور حياة المجتمعات بأشكال وأنماط مختلفة، وقد اعتمدت فى أغلب الأحوال على ماقدمه الفكر البشرى بمختلف اتجاهاته، ولعلنا ندرك أن جوهر هذه المسألة هو البشر، أى الإنسان بكل مايملكه من قوى عقلية قادرة على الإبداع المتمثل فى تراكيب وأنسجة معرفية جديدة أخذت فى الاعتبار الماضى بكل تجاربه وخبراته، ورصدت الحاضر بكل توجهاته وتنبأت بالمستقبل بكل آماله ومتغيراته.

وقد أدركت الدول المتقدمة منذ زمن بعيد أن كيانها ووجودها على خريطة العالم وعلى خريطة التقدم والرفاهية سبيله قدرات البشر على تقديم الإبداعات بكل أشكالها، ومن هنا كان الاهتمام بالتربية عامة والمناهج المدرسية بوجه خاص.

والسؤال المطروح فى هذا الشأن كيف يكون البشر قادراً على ذلك؟ هل يكون ذلك بامتلاكهم قدرات إبداعية؟ إن مصر بتاريخها المجيد أضافت إلى الحضارة ما أفاد البشر فى كل مكان، وكان البشر هم السبيل إلى ذلك، لدرجة أن دول العالم لاتزال عاكفة على دراسة الكثير مما قدمه المصريون منذ آلاف السنين من الإبداعات فى كل مجالات الحياة، وإذا كنا قد طرحنا هذا السؤال المركب فإننا

نجيب عنه ببساطة شديدة فنقول نعم نحن دولة تسعى إلى التقدم بأعلى معدلات ممكنة، كما أننا ننظر إلى القوى البشرية باعتبارها السبيل لإحداث ذلك التقدم وبتلك المعدلات، ولاسبيل أمامنا إلا أن نربى الأبناء على أفضل نحو ممكن بحيث يكونوا قادرين على تحمل المسئولية حاضراً ومستقبلاً.

ولقد أصبح من المسلم به عالمياً أن التربية بمفهومها الواسع هى الأداة لتحقيق هذه الأمال والتطلعات، ولانقصد بذلك بطبيعة الحال المؤسسات التعليمية الرسمية فقط، ولكن المقصود هو كافة المؤسسات المسئولة عن التربية المخططة والمقصودة وغير المخططة وغير المقصودة، وهذا يعنى أننا نتطلع إلى مجتمع مرب، بحيث ينظر الفرد هنا وهناك ويتفاعل من خلال هذه المؤسسات، فالخبرات المتاحة له يجب أن تدعم المفاهيم والقيم الأساسية اللازمة لممارسة السلوك الإبداعى.

ولعلنا ندرك أن أحد الفروق الأساسية بين التقدم والتخلف هو قدرة أبنائها على الإبداع والإضافة المستمرة إلى تراكمات المعرفة، ولذلك كثيراً مانسمع من يمدح ويمجد فى هذه الدول أو تلك، ويكون ذلك فى أغلب الأحوال محصلة لجهد علمى وأصالة فى التربية وحرص على إعداد أجيال قادرة على تقديم شىء مفيد للبشر بغض النظر عن المكان والزمان.

وبين هذه الدول نجد بعض الدول التى لاتأخذ من الإبداع إلا اسمه وتؤكد فى بحوثها وتقاريرها أنها تتبنى الإبداع وتتخذ مدخلاً لتطوير مناهجها، ولكن الواقع يشير إلى أن هناك هوة سحيقة بين مايقال وما يتم على المستوى الاجرائى.

ولاشك أن وسيلة التربية فى ذلك هى المناهج الدراسية، ولعلنا نرى ونسمع كل يوم مناقشات وجدل علمى وغير علمى حول المناهج الدراسية، فالمناهج الدراسية تهم كل الأبناء وكل أولياء الأمور ومن حق كل منتج أو مستهلك لها أن يتحدث عنها ناقداً ومطوراً معبراً بذلك عن كافة التطورات الجارية فى تخطيطها

وإدارتها وتنفيذها وتقويمها، وتطويرها، وهكذا أصبحت فكرة الإبداع أمام كل مشتغل بالتربية من أجل الحوار والتفاعل للتفكير فى كيف يكون الإبداع ليس على المستوى الفكرى فقط، ولكن على مستوى الممارسة أيضاً.

وإذا كانت الأنظار تتجه دائماً إلى المناهج ونقدها، فان ذلك يرجع إلى أن هذه المناهج هى الشىء الظاهر فى مجرى العملية التربوية والتعليمية، ولذلك فكل ما يوجهه أولياء الأمور أو الشخصيات العامة أو التلاميذ أو غيرهم إلى المناهج هو فى الواقع نقداً للواقع التربوى الجارى ممثلاً فى المناهج الدراسية، بل إن الأمر يتحدد فى توجيه اللوم إلى أولئك الذين ألفوا الكتب المدرسية، وهم فى هذا الشأن ينقدون الكتب ولاينقدون المناهج.

وفى سبيل ذلك جاءت فكرة الإبداع مدخلاً لتطوير المناهج وليس لمجرد تطوير الكتب المدرسية ولذلك سنعرض فى هذا المجال لأمرين أساسيين هما:

(أ) المسلمات التى تحكم عمليات المنهج وموقف مناهجنا منها.
(ب) كيف يمكن أن نتخذ من الإبداع مدخلاً لتطوير المناهج.

أ- مسلمات أساسية تحكم عمليات المنهج وموقف مناهجنا منها:

١ - الكتاب المدرسى ليس هو المنهج ولكنه وسيلة من وسائل تنفيذه، ومن ثم فان الحديث عن المنهج لا يعنى أننا نتحدث عن الكتاب ولكننا نتحدث عن نظام أوسع وأشمل من مجرد الكتاب، وهكذا فاننا عندما نطور الكتاب المدرسى بالحذف أو الإضافة أو التقديم أو التأخير إنما نكون قد اتجهنا إلى المادة العلمية فى محاولة التطوير من الناحية الشكلية فقط، كما أننا نكون قد تعاملنا مع وسيلة من وسائل المنهج أو مُكونًا من مكوناته، وتبقى بقية الوسائل أو المكونات على حالها دون تطوير.

ومعنى ذلك أن الإبداع يحتاج إلى كتاب مدرسى جوهره الإبداع، أى أن الكتاب

عندما يرجع إليه المعلم يجد فيه مسارات تحتاج إلى التفكير المبدع، وكذلك بالنسبة للمتعلم يجب أن يجد مادة مثيرة للتفكير التباعدى وتقديم أفكار جديدة وإقامة علاقات غير مألوفة.

٢- الموقف التدريسى اليومى هو وحدة بناء المنهج وتطويره، وذلك أن الموقف التدريسى يضم المادة بقدر ما بتنظيم معين وأساليب تدريس محددة، وتكون هذه المادة متكاملة مع المكونات الأخرى للمنهج وبذلك تكون المادة العلمية وسيلة من وسائل المنهج ومكونا من مكوناته، وهكذا يصبح المنهج مجموع من تلك المواقف، وليس مجرد كتاب أو قدر من المادة العلمية، وفى إطار هذا المفهوم يكون المعلم مخططاً ومنظماً ومديراً للتفاعلات التى تشملها مواقف التدريس وليس مجرد ملقن لمضمون الكتاب.

وهكذا نجد أنه فى إطار السعى إلى الإبداع كهدف حاكم للمناهج المدرسية يكون الموقف الذى يمر به المتعلم من النوع الدافع الذى يدعو للتفكير والحوار الفكرى والتوصل إلى خلاصات استنتاجات بإرشاد المعلم.

ومن هنا يكون الموقف التعليمى هو الموقف المعلم والذى يؤدى إلى إثراء العملية التعليمية والتربوية، كما أن المتعلم يكون حريصاً فيه على التفاعل والمشاركة، ويكون المعلم منظم للموقف ومدير له يتولى التوجيه من أجل تصحيح المفاهيم وتنميتها وإثراء الاتجاهات والقيم الأساسية واللازمةليكون الإبداع هو النمط السائد فى تربية الأبناء.

٣- أن المعلم عندما ينفذ المنهج من المفترض فيه أن يكون على صلة بنوع الفكر الذى أُلزم به من قاموا ببناء المنهج، ومع ذلك فهو لابد أن يكون صاحب رأى أو وجهة نظر يترجمها إلى سلوك تدريسى معين، ومعنى هذا أن ماتم تخطيطه من المناهج يظل على شاكلة معينة إلى أن تتناوله أيدى التنفيذيين، فيقدمون ما يمتلكونه من خبرات وأفكار وأساليب تعكس تراكماتهم الخبرية

فى المهنة، ومن هنا تبدو لنا فكرة التجريب فى تنفيذ المنهج التى تعد أمراً متوقعاً ومطلوباً.

٤- أن الكتاب المدرسى على الرغم من أهميته ليس بالمصدر الوحيد للتعلم، بل وليس أهم المصادر، وهذا يعنى حاجة الأبناء والمعلمين إلى كفاءات خاصة لاستخدام جميع مصادر التعلم بما فى ذلك الكتاب المدرسى، وبذلك يتبين أن التلاميذ فى حاجة إلى تعلم كيفية استخدام كل مصادر المعرفة، وهنا تكون المهارات والاتجاهات والقيم المرتبطة بالمعرفة نواتج تعلم أساسية، كما أنها تكون باقية الأثر أكثر من حفظ المعلومات وتزويدها.

٥- المعرفة وسيلة لبناء الفكر ولبناء النسيج الوجدانى للفرد ولتشكيل كفاءاته وسلوكياته، وبالتالى فان نقلها إلى عقول التلاميذ باعتبارها خزائن بشرية تحفظ فيها الثقافة وتنقل عن طريقها إلى الأجيال المقبلة ليس سوى نظرة تعبر عن التخلف، ومن هذا المنظور يمكن القول أن المعرفة التى لاتستثمر فى بناء الفكر والنسيج الوجدانى والكفاءات والسلوكيات ستظل دائماً قليلة النفع بل ويمكن التشكك فى قيمتها العلمية ودرجة تأثيرها فى بناء البشر على النحو المستهدف.

٦- المعلم صاحب مهنة وهذه المهنة تفرض أن يمتلك المعلم كفاءات خاصة تمكنه من ممارسة أدوار لم نعهدها من قبل فى نظامنا التعليمى عامة ومناهجنا الدراسية خاصة، فالمعلم مجرب وباحث وصاحب فلسفة ومنظم ومدير للمواقف التدريسية ومدير للتفاعلات الصفية وغير الصفية، ومع ذلك فهو لايمارس هذه الأدوار ولكنه يمارس دوراً واحداً نعرفة جميعاً هو دور الناقل للمعرفة إلى عقول الأبناء والتأكد من احتفاظهم بها حتى يوم الامتحان.

٧- الموقف التدريسى شركة بين المعلم والمتعلمين، ومن ثم فلكل من الجانبين

دوره فى المشاركة الحقيقية، ونقصد بذلك أن التلميذ يجب أن يكون له دوره فى عملية التدريس بكل ما تشمله من تخطيط وتنظيم وتنفيذ وإدارة، وبالتالى فان سلبيته فى مواقف التدريس تعبر عن نموذج فى التدريس غاية فى التخلف ويعبر عن فكر تربوى لم يعد له وجود إلا فى متاحف تاريخ التربية، فالكل مشارك فى تفاعلات تعليمية تربوية من أجل الخروج بنواتج تعلم ذات قيمة وأبقى أثراً فى شخصية الفرد.

٨- أن المفاهيم وأساليب التفكير ومانود تنميته من اتجاهات وقيم يجب أن يترجم إلى مواقف حقيقية فى كل مراحل التدريس، فلايكفى أن نرفع شعاراً عن التعاون أو الحرية أو العدالة أو الروح العلمية أو الإبداع أو غيرها ونتصور أننا إستطعنا تحقيق مانريد من أهداف براقة وأننا استطعنا أن نصل إلى مستوى السلوك، ولكن لابد من توفير المناخ وتشجيع المشاركة الحقيقية وتخطيط المواقف التدريسية المؤثرة والدافعة إلى التعلم المثمر.

٩- إن الامتحانات بصورتها الراهنة ليست إلا وليدة النظام القائم والمناهج المدرسية السائدة، ومن ثم يمكن توجيه النقد إليها من هذه الزاوية وفى إطار معايير تلك المناهج، فليس من المنطق فى شىء أن نوجه إليها النقد وهى وليدة نظام معين ومناهج مدرسية قائمة، وهكذا فان تطوير الامتحانات والتقويم التربوى بوجه عام هو جزء من تطوير المناهج ذاتها، ولذلك فان عملية تطوير المناهج إذا تميزت بالشمول فمن المؤكد أن تقويم الامتحانات ومراجعة نظام التقويم سيشغل فكر القائمين على أمر التطوير، والمهم فى هذا الشأن أن يكون التقويم ملتزماً بالأصول العلمية التى أكد البحث العلمى مصداقيتها.

١٠- تتميز عملية تطوير المناهج بالشمول، ومع ذلك نلحظ أن تطوير مناهجنا يقوم على الجزئية مما يفقد عملية التطوير مقوماً أساسياً من مقوماتها، ومن ثم فهى

تعتمد العفوية فى مقابل التخطيط العلمى وعلى الشكلية فى مقابل الجوهرية وعلى الفردية فى مقابل العمل الفريقى، وبذلك لايمكن القول أن الأساليب التقليدية فى تطوير المناهج يمكن تصنيفها لتكون فى إطار علم تطوير المناهج بمعناه الصحيح.

١١- أن كافة الممارسات المتصلة بالمناهج تخضع بشكل مباشر للمناخ الاجتماعى بكافة الضغوط والمتغيرات والضوابط التى تحكمه، وهذا المناخ يؤثر بصورة أساسية على المناخ المدرسى وكذا المناخ الصفى، وبذلك فان العلاقة الشبكية بين هذه المستويات الثلاثة تتحكم بأقدار متفاوتة فى نوعية المواقف التدريسية ونوعية التفاعلات السائدة فيها والتى تشترك فيها جميع الأطراف.

١٢- أن القيادات التربوية على كافة المستويات معنية بمسألة الفكر والتطبيق معا، فالمعلم والموجه والمدير فى حاجة إلى المثل والنموذج للمحاكاة فى البداية تم التجديد والإبداع فى مرحلة تالية بما يعبر عن ذكاء وفكر وقدرات كل فرد فيما يقوم به من ممارسات ميدانية، وبالتالى يكون المنهج أقرب الأطراف تأثراً بمستويات تلك القيادات.

١٣- يعد المنهج المدرسى تعبيراً صادقاً عن المجتمع بكافة أبعاده الحضارية والاجتماعية والفلسفية، ومن ثم لاينبغى استيراد مناهج من أى دولة مهما كان مستوى تقدمها، لأن المنهج ترجمة لنموذج تربوى يضعه المجتمع ويحدد فيه نوعية المواطن، باعتباره مشاركاً فى الحاضر وصانعاً للمستقبل، ومن هنا تكون النظرة المستقبلية من أهم الأسس التى يجب أن يعتمد عليها المنهج مهما كان نوعه ومستواه، ويرتبط بهذا الأمر أن المنهج يجب أن يبدأ مما هو ثابت ومستقر لدى الأبناء من خبرات سابقة، وبالتالى فإن إنعكاس مختلف البيئات على المناهج الدراسية يعد أمراً مهما لايجب التقليل من شأنه. ومن هنا نجد أن هناك من الدول من يعتمد فى مناهجه على التنوع الثقافى والبيئى،

ومن ثم يمكن أن تختلف المناهج من حيث الشكل والمضمون فى دولة واحدة، وفى هذه الحالة تكون الأهداف محددة ولكن الشىء المختلف هو المضامين وأساليب المعالجة ومصادر التعلم.

١٤- تعد عملية التجريب على كافة المستويات من أهم العمليات التى تساعد على نجاح الجهد المبذول فى بناء المناهج وتطويرها، ذلك أننا تعودنا لزمن طويل أن نتصور أن هذا القدر من المعرفة أو ذاك يصلح للأبناء فندفع به إلى المطابع ثم إلى المدارس وأيدى المعلمين والتلاميذ ونفاجأ فى مرحلة التعميم أن هناك مايستحق المراجعة، ومايستحق الحذف، وما يستحق الإضافة، بل وأحياناً ما يستحق الإلغاء كلية، ولذلك أصبح الشغل الشاغل لمراكز تطوير المناهج هو تخطيط المناهج وضبطها عن طريق التجريب الميدانى على مجموعات صغيرة والتهيئة الفكرية والنفسية للمعلمين والموجهين، وكل ذلك يتم قبل مايسمى مرحلة التعميم.

إن هذه المسلمات سابقة الذكر نابعة من أدبيات علم المناهج وأصوله وبحوثه، ولعله قد تبين لنا من خلال العرض السابق موقف مناهجنا منها وهو ما يؤكد أن مناهجنا الحالية لاتزال بعيدة عن كونها مناهج يمكن أن تنمى الإبداع. وإن كان هذا لايعنى عدم إمكانية اتخاذ الإبداع كهدف على مختلف المستويات بما فى ذلك مناهجنا المدرسية.

والأمر الجدير بالتأكيد فى هذا المجال هو أن إرادة التطوير وإرادة وقرار التطوير ماثل أمامنا، والخبرات المصرية والأجنبية متاحة، والإمكانات المادية والبشرية ميسرة، ولكن المشكلة تكمن فى : من أين نبدأ؟ وكيف نسير؟ وبمعنى آخر ما الإجراءات التنفيذية الكفيلة بانتقال الإبداع من كونه فكراً إلى كونه مناخاً عاماً وسلوكاً لدى الجميع، ونقصد بالجميع هنا المعلم والمتعلم والمدير والموجه، وكذا كل قيادة ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة بعمليات المنهج بمعناه الواسع الشامل والذى أشرنا إليه فى معالجتنا للمسلمات.

ب- كيف يكون الإبداع مدخلاً لتطوير المناهج ؟

يمكن لمخططى ومنفذى المناهج أن يتبنوا هذه الفكرة بحيث يكون الإبداع هو جوهر عمليات المنهج مهما كان مستواها ولكن ذلك قد يقف عند مستوى الشكل دون المضمون ويمكن بدرجات متفاوتة فى تلك العمليات، وهذا يتوقف بطبيعة الحال على قوة الدفع التى تجعل من هذا المدخل حقيقياً وملموساً فى كافة عمليات المنهج.

ولعلنا نلاحظ أن الأفكار المتعلقة بالإبداع أصبحت منتشرة بشكل واضح لدرجة أن العديد من الاجتماعات والندوات والمؤتمرات المتخصصة تتخذ من الإبداع محور للمناقشات ولكن ظل ذلك على مستوى المفاهيم والمبادىء التى يقوم عليها الإبداع بقصد التعميق والتأصيل، وعلى الرغم من أهمية هذه المرحلة إلا أنها لاتعد كافية، كما أنها لاتعد ضماناً لتشبع مناهجنا بالإبداع سواء على مستوى النظرية أو على مستوى التطبيق، ولذلك فإن الداعين إلى الأخذ بفكرة الإبداع كمدخل لتطوير المناهج يشعرون بحالة من عدم الاتزان، فالفكر فيه تطور والحديث عن الإبداع كثير ومتشعب، فالكل يتحدث عن الإبداع، ويؤكد البعض إمكانية اعتماده مدخلاً لتطوير المناهج، ويؤكد البعض الآخر أن الإمكانات المتاحة والظروف الراهنة تقف هائلاً دون ذلك ومن هنا جاءت حالة عدم الاتزان التى تتحدد فى شيوع الاهتمام بالفكرة دون معرفة كيفية ترجمتها إلى مواقع فى عمليات المنهج.

ولذلك سنحاول فى هذه المرحلة أن نضع تصوراً فى هذا الشأن، وهو كالتالى:

أ- تحتاج مسألة الإبداع كمدخل لتطوير المناهج إلى تهيئة فكرية ونفسية لكل من له علاقة بعملية تربية الأبناء، بما فى ذلك كافة وسائط الثقافة مثل الإذاعة والتليفزيون والصحافة.

ذلك أن تلك التهيئة تعنى الحاجة إلى مناخ اجتماعى عام يؤمن بالفكرة ويستوعبها ويتقبلها كأسلوب للحياة، وهذا يعنى أيضاً أن المجتمع كله بكافة مؤسساته وقطاعاته لابد أن يتبنى هذه الفكرة لتصل إلى كل مسؤول عن عملية التربية سواء بشكل رسمى أو غير رسمى، والسبيل إلى ذلك اللقاءات العامة والندوات والمناقشات فى كل المستويات بما فى ذلك اللقاءات العامة والندوات والمناقشات فى كل المستويات بما فى ذلك الأجهزة الشعبية بحيث يشارك فيها أصحاب الفكرة الجديدة ليتناقشوا ويوضحوا ويكشفوا عن المميزات ونواحى القوة وعلاقة ذلك كله بنوعية مواطن المستقبل، أننا فى هذه المرحلة لابد أن نسعى إلى إيجاد حالة من التقبل العام والاقتناع الكامل بين المشتغلين بالتربية، ذلك أننا فى حاجة إلى جذب المعارضين إلى صفوف المؤيدين لأن الحاجة ماسة إلى جيل من التربويين يدافعون عن الفكرة ويسعون إلى ترجمتها إلى واقع ملموس، وهكذا يبدو أننا فى حاجة إلى التأثير فى اتجاهات ومفاهيم هذه الفئة، وهو أمر يحتاج إلى وقت طويل وصبر وإصرار، ولاننسى هنا أن المناخ الاجتماعى السائد ليس محصلة لسنوات قليلة مضت، ولكنه محصلة لعقود طويلة، ومن ثم فقد تركت تلك العقود رواسبها فى عقول الكثيرين، وبالتالى فان الجهد لابد أن يكون مضاعفاً من أجل تغيير الفكر وتعديل الاتجاهات وإحلال ثقافة الإبداع محل ثقافة التبعية وممارسة المألوف ورفض ومقارنة فكل فكر جديد مهما كان مصدره.

ولعلنا ندرك الآن أننا لسنا فى حاجة إلى مدخل واحد من أجل التهيئة الفكرية والنفسية ولكن لابد من مداخل متعددة يتم من خلالها الوصول إلى عقول ووجدان القيادات التربوية والمعلمين والأبناء وأولياء الأمور ومخططى البرامج الإذاعية والتلفزيونية وكتاب الصحف والمجلات، وليس المقصود بذلك ما ينتجونه من مواد تربوية ولكن مانقصده هو أن كل إنتاج تلك المؤسسات يجب أن يتجه إلى تقديم إسهاماته الثرية لدعم عملية التهيئة التى ننفذها، ويرتبط بهذا الأمر

أن يتحدث الجميع بلغة واحدة، وهذا يحتاج إلى مصطلحات متفق عليها حتى تسهل عملية التواصل الفكرى بين الجميع، فالإبداع لغة وثقافة واتجاه لابد له من الإيمان والبنى والاستعداد لتغيير مسارات عملية التربية والتعليم من أجل بناء العقول والشخصيات بدلا من الاقتصار على مايسمى بتدريب الذاكرة على الحفظ والاستظهار.

ب- إثراء المناخ المدرسى :

إن المناخ المدرسى هو امتداد للمناخ الاجتماعى بل وربما يمكن القول أن الأول انعكاس مباشر للثانى، فإذا ماتغيرت نظرة المجتمع إلى المعلم باعتباره قائداً تربوياً قبل أن يكون معلماً وأنه باحث ومجرب، ومبادىء قبل أن يكون ناقلاً للمعرفة فان ذلك سيجعل منه محركاً مديراً للتفاعل من خلال المناخ المدرسى السائد.

وهذا الأمر يحتاج إلى بنى مدرسى من نوع مغاير، فهو ليس بناء هندسى فقط ولكنه بناء هندسى تربوى لابد أن تتوافر فيه المساحات الكافية لممارسة الأنشطة بعمق وثراء، وتعنى التهيئة أيضاً نوعاً جديداً من العلاقات الإنسانية بين البشر داخل جدران المدرسة كمؤسسة اجتماعية لها وظيفة أساسية هى تربية الأبناء فكراً ووجداناً وسلوكاً، وهكذا فمن المتوقع أن تختلف الممارسات السائدة، وتعنى التهيئة أيضاً فناءاً مدرسياً ونشاطاً فنياً وجمعيات علمية ومسرح مدرسى وإذاعة مدرسية وصحافة مدرسية ومكتبات جديدة فى الفصول والمدارس، وغير ذلك من مقومات الحياة المدرسية التى وجدت منذ نصف قرن، وهكذا فان شدة الاتصال أو قوة التأثير بين المناخ الاجتماعى والمناخ المدرسى هى العامل الحاسم بل والحاكم أيضاً لمدى تغلغل مفاهيم الإبداع ومبادئه فى المناخ المدرسى.

ولعلنا بذلك نرى أهمية المناخ الاجتماعى وأهمية التواصل بينه وبين المناخ

المدرسى وكيف أن المفاهيم والمبادىء التى يتنفسها الأبناء ويعيشونه داخل جدران المدرسة متوقفة على نوع المناخ السائد، فالمناخ المدرسى هو التربة التى سيأتى إليها المنهج لكى يزرع فيها ولكى يعيشه الأبناء كل يوم، ومن ثم لابد أن يكون لهذا المناخ قوة التأثير فى الأبناء ولاشك أن هناك علاقة وثيقة بين الديموقراطية والإبداع، فالدميوقراطية تعنى حرية الرأى وحرية التعبير عنه، وهذا يرتبط بالرؤية النقدية لكل شىء، وطرح البدائل والتوصل إلى إستنتاجات وتقديم تفسير وإيجاد علاقات واتخاذ قرارا، وكل هذا لايستطيع المعلم أن يمارسه مع تلاميذه فى مواقف الخبرة اليومية إلا إذا كان المجتمع بكل مؤسساته يؤكد بذلك سواء من الناحية النظرية أو الناحية السلوكية.

وإذا كان على ثقة من أن الإبداع هو سبيل تقدم الأمم فإن المناهج المدرسية لابد أن تكون الوسيلة الفاعلة فى هذا الشأن، وإذا أردنا أن نعبر عن هذه الفكرة بشكل اجرائى فيتضح ذلك فى حاجة إلى فكر موجه إبداعى وترجمع هذا الفكر إلى نموذج.

جـ- الحاجة إلى نموذج للمنهج :

النموذج تجريد لكافة المفاهيـم والمبادىء التى يقـوم عليها الإبداع وهو أيضاً محصلة للفكر التربوى السائد، والهدف من وراء ذلك هو أن ينظر خبراء المناهج فى مرحلة التخطيط فيجدون أمامهم نموذجاً يسترشدون به فى كل شىء بدءاً من أهداف المنهج وانتهاءاً بأساليب التقويم المناسبة له مروراً بمكونات المنهج الأخرى ولعلنا نلاحظ أن المناهج المدرسية فى كافة البلدان العربية تفتقد النموذج، ولذلك فنادراً ما نرى وضوحاً فى الفلسفة الموجهة للمنهج بل وكثيراً ما نرى أشياء لانعرف لها أساساً نظريًا أو فلسفياً، وغالباً ما نشاهد تخبطاً وارتجالاً فى الحذف والإضافة، وهى أمور ترجع فى الغالب إلى غياب النموذج، ونموذج فى هذا الإطارة عبارة عن صورة موجزة إجرائية للفكر التربوى الحاكم لحركة تطوير

المناهج، وبقدر ما يبذل من جهد فى تشكيل هذا النموج أو ذاك بقدر مايتوافر من وضوح فى إجراءات وعمليات المنهج التالية، ومن الأمور المؤكدة فى هذا الشأن أن نماذج المنهج لايمكن نقلها من دولة إلى أخرى، ذلك أن هـذا الأمـر يعـنى ببساطـة شديدة نقل فكـــرى تربوى من دولة ما إلى دولة أخرى وهنا يقع المحظور فالفكـر التربوى الســـائد فى دولة ما هو محصـلة لأبعاد وضغوط ومتغيرات ثقافية واقتصادية واجتماعـية والسياسيـة وعلمية، وهى ليست على نفس الصورة فى دولة أخرى، ولذلك فـان هـذا النقـل إذا تم بشكـل آلـى دون تحليـل وتمحيص ستكون النتيجـة هى الفشـل، ثم تأتى الشكـوى مـن أن تجربة مدخل النماذج قد فشلت، بينما الـذى فشـل هـم من قاموا بالنقـــل الأعمـى لمجـرد تقليد دولة متقدمة فلايكون نصيـب الناقـــل إلا بعض مميزات الشكل وإهمال الجوهر، وأخيراً يبقى الإبداع مجرد فكرة وأملاً طموحاً يراه المخططون ولايعرفون اليه السبيل.

ولكن ما السبيل إلى هذا النموذج؟؟

إن التوصل إلى نموذج للمنهج يعنى مجموعة من الدراسات القبلية لعديد من النواحى، وهذه النواحى هى:

* الاتجاهات العالمية كما تبدو فى نماذج للمنهج فى دول متقدمة، وذلك لتحليلها ونقدها، والنظر فى أمر مايمكن الأستعانة به فى بناء نموذج لدولة عربية ما.

* رصد كافة أشكال التطور العلمى فى البنى المعرفية وتكوين صورة واضحة عن النظريات العلمية الجديدة وماسقط من مسلمات العلم نتيجة لنتائج البحوث العلمية.

* رصد أشكال التكنولوجيا المناسبة لتخطيط وتنفيذ مناهج معنية فى إطار نموذج خاص بدوله ما.

* دراسة آخر ماتوصل إليه البحث العلمى فى مجال علم النفس التربوى، حتى يمكن وضعه فى الإعتبار فى عمليات المنهج.

* دراسة الإمكانات المتاحة، مثل المبنى المدرسى والمعلم والموجه ونظم الامتحانات والنظر فى المستحدثات الخاصة بهذه الجوانب من حيث علاقتها بتشكيل المناخ الإبداعى.

* رصد حركة المجتمع ممثلة فى مؤسساته وهيئاته ومدى التزامها بثقافة الإبداع ومدى حرصها على نقل هذه الثقافة إلى المستوى التربوى.

* مراجعة برامج إعداد المعلم وتدريبه فى أثناء الخدمة لتعرف مدى قدرة المعلمين على تنفيذ مناهج تتخذ الإبداع هدفاً حاسماً ومطلباً أساسياً.

* بناء تصور مبدئى للنموذج يأخذ فى إعتباره كل ماسبق وعقد ندوات أو لقاءات فكرية بين مجموعات من الخبراء والقيادات التربوية والشخصيات العامة فى المجتمع لمناقشة جوانب النموذج.

* مراجعة النموذج وتعديله وفق مايجرى من حوارات حول شكل النموذج والعلاقات الطولية والعرضية الممثلة به ثم وضعه فى صورته النهائية.

* طرح النموذج على الخبراء الذين يتولون مسئولية تصميم وتخطيط المنهج لدراسته وتعرف الأصول التى أعتمد عليها فى تشكيله.

* مناقشة النموذج فيما بين من قاموا ببنائه وأولئك الذين سيتولون ترجمته إلى مناهج دراسية.

ومن الأمور الهامة الجديرة بالذكر هنا أن يكون النموذج إجرائياً، وهذا هو المقصود بالقول بأن النموذج لابد أن يهتم بالعمليات أكثر من اهتمامه بمجرد وصف مكونات المنهج.

والحقيقة أننا إذا كنا نؤمن بأهمية النموذج فان ذلك يساير فكرة القيادة

فـى المنهج، أى أن من يعملون فى المناهج يحتاجون إلى قيادة تتمثل فى النموذج وفى الخبراء الذين يشرفون على ترجمة النموذج إلى مناهج فعلية تتخذ من الإبداع مدخلا لها، والنموذج باعتباره إنعكاساً لجهد بشرى متطور يتسم بالعمق والأصالة والمرونـة، وبالتالـى فـان مـن قامـوا بتخطيطـه هـم الذيـن يجـب أن يقومـوا بتنفيذه فى مرحلة التخطيط الفعلى للمناهج على كافة انتماءاتها إلى مختلف النظم المعرفية.

د- النموذج والأهداف والمستويات:

وهكذا فان مسألة الإبداع يجب أن تكون واضحة ومحددة والشغل الشاغل لخبراء المناهج فى كافة المستويات وفى كافة العمليات، إذ أنه بدون ذلك ستكون المناهج ارتجالية، وقد يظهر فيها الإبداع وقد لايظهر، وإذا ظهر سيكون بشكل غير مقصود وغير مخطط.

ولعلنا فى حاجة فى هذا الشأن إلى تقديم بعض الأمثلة لأهداف المناهج التى تعكس الإبداع أو بعض جوانبه على الأقل:

١- أن يكتسب التلاميذ مهارات كتابة البحوث القصيرة.

٢- أن يعرض التلميذ أفكاره بتحديد ووضوح.

٣- أن يعبر التلميذ عن آرائه بحرية كاملة.

٤- أن يقدم حلولاً وبدائل لمشكلات مطروحة للمناقشة.

٥- أن يحترم التلميذ الرأى الآخر.

٦- أن يلتزم التلميذ بالقواعد المنظمة للحوار.

٧- أن يكتسب التلاميذ مهارة كتابة تقارير عن مشكلات قاموا بدراستها.

٨- أن يكتسب التلاميذ مهارة استخدام مصادر متنوعة للمعرفة.

٩- أن يكتسب التلاميذ القدرة على تحليل نص فى المادة العلمية.

١٠- أن يكتسب التلاميذ القدرة على تلخيص قدر من مادة علمية.

١١- أن يكتسب التلاميذ القدرة على التمييز بين الأفكار والمبادىء الأساسية.

١٢- أن يكتسب التلاميذ القدرة على استخدام الأطالس والقواميس والمعاجم ودوائر المعارف.

١٣- أن يكتسب التلاميذ القدرة على التخطيط الجماعى.

١٤- أن يكتسب التلاميذ القدرة على الاشتراك فى المناقشات.

١٥- أن يكتسب التلاميذ القدرة على الاستماع إلى الآخرين.

ويبدو من النظر إلى هذه الأهداف أنها تصلح لتكون أهدافاً لأحد المناهج الدراسية، وهى لايمكن أن تكون أهداف لمواقف تدريسية ولكنها تعد موجهات لمخططى المناهج، ويحتاج المعلم فى مرحلة تنفيذ المنهج إلى تحليل هذه الأهداف ليصل إلى أهداف إجرائية تصف أشكال الأداء التى يتوقع من التلاميذ القيام بها بعد كل موقف من مواقف التدريس. وجملة القول فى هذا الشأن أن الإبداع بكل مكوناته لابد أن يظهر بوضوح فى كل مستويات الأهداف لتكون قواعد للعمليات التالية والتى من شأنها أن تترجم هذا كله إلى خبرات مشبعة بالإبداع تتاح للأبناء.

ويرتبط بما سبق العلاقة بين نموذج المنهج وأساليب التدريس..

فى إطار ماسبق قوله عن مكانة المعرفة من العملية التعليمية يصبح قدر ما يتعلمه الأبناء متوقفا على مدى الفائدة المحققة من ورائها، وهى تتمثل عادة فى بلوغ الأهداف المحددة وفى إطار النموذج الخاص بالمنهج تكون استراتيجيات التدريس المناسبة، فالمعلم لايقوم بالتدريس بالمعنى التقليدى، ولكنه يقوم بتخطيط وتنظيم وتنفيذ الخبرات اليومية سواء داخل الفصل المدرسى أو خارجه، وفى جميع الأحوال من المفترض أن يكون قادراً على تشكيل

وبـناء خبرات يكون من شأنها التأثـير فـى الأبـناء عقليـاً ووجدانـياً ومهاريـاً، وهـذا لا يتأتى إلا إذا كان المعلم قادراً على تبنى إستراتيجيات تنمية التفكير الإبداعى والتى تؤكد على:

١ - إدراك التلاميذ لعلاقات جديدة.

٢ - انطلاق التلاميذ للتفكير تفكيراً تباعدياً متحرراً يصلون من خلاله إلى آراء ووجهات نظر وتصورات وإجابات متنوعة.

٣- إثارة الدوافع حتى يقبل التلاميذ على مواقف التدريس والمشاركة فيها.

٤ - توصل التلاميذ إلى مظاهر الإبداع دون تحديد مسبق.

٥- إفساح الوقت المناسب للتفاعل المثمر بين التلاميذ ومواقف الخبرة المتاحة.

٦- توفير الإمكانات المناسبة، سواء كانت مادية أو بشرية.

٧- إتاحة الفرصة أمام الأبناء لمزيد من التعلم.

٨- استخدام العديد من استراتيجيات التدريس لما يوجد بين التلاميذ من فروق فردية.

٩- التفاعلات الإنسانية يجب أن تسود مواقف التدريس بمختلف أنواعها ومستوياتها.

١٠ - النشاط المدرسى مهما كان نوعه هو مكون أساسى من مكونات المنهج بل ويرتبط به إرتباطاً عضوياً.

وهذا يشير بوضوح إلى أن جوهر مسألة الإبداع هو أساليب تناول المعرفة، وكيفية أعمال الفكر فيها، وبالتالى فان الالقاء والتلقين لايمكن إعتباره طريقة يمكن أن تؤدى إلى الإبداع، وهكذا فان المعلم المبدع والتدريس المبدع هو الذى يمكن أن يؤدى إلى تكوين عقل الفرد ليكون قادراً على الإبداع حقيقة.

ولعل ما أجرى ولايزال من بحوث فى مجال التعلم من أجل التمكن والتعلم من أجل التميز والتعلم من منظور الذكاءات المتعددة كل ذلك ليس إلا محاولات جادة لتعظيم إمكانات الفرد، وهذا يتضمن قياسها والكشف عنها وتوجيهها من خلال طرق تدريس وتكنولوجيا مناسبة من أجل تكون عقول البشر على مستوى من الفهم والوعى وتقديم الفكر الجديد وتقديم الإبداعات لصالح البشرية جمعاء.

ولذلك فإن الأمم المتقدمة تسعى إلى المزيد من التقدم فى سباق العلم والتكنولوجيا، كما أن الدول التى تريد أن تخرج من دائرة التخلف أو الجمود والرجعية تسعى أيضاً إلى التقدم، ولقد أدرك الجميع أن البشر هم أساس التقدم وأنه مهما كانت موارد أى دولة ستظل هذه الموارد مطمعاً للدول الأخرى بشكل أو آخر طالما أن البشر الوطنيين غير قادرين على ذلك.

وفى سبيل تحقيق السبق فى هذا المجال أجريت البحوث العلمية وأعدت الاختبارات والمقاييس من أجل إجراء عملية تصنيف وتمييز بين من يمتلك قدرات إبداعية ومن هم يمثلون السداد الأعظم، وتوضع خطط المناهج ويعكف الخبراء على بائها، بناء مناهج لكل فئة، وربما لكل بيئة، أو لكل قرية أو محافظة أو منطقة، وإلى جانب هذا كله رعاية خاصة لمن هم فى مصاف المبدعين وذلك من خلال مناهج خاصة ومواد كلية خاصة وتدريس وأنشطة مختلفة تماماً، وهذا كله يستهدف تقديم خبرات من نوع يناسب ما تم الكشف عنه من مظاهر الإبداع لدى التلاميذ.

المبدعون قلة فى أى مجتمع ويمثلون قوة خاصة لاتتكرر كثيراً، وبالتالى فان معرفتها ورعايتها وإستثمارها ها هو الذى يجعل الدولة تمثل عقول وقدرات قادرة على تقديم الفكر الجديد والإنتاج المتميز، وهنا يقال أن هذه الدولة متقدمة ومتفوقة على دول أخرى، ومن أين جاء هذا التفوق؟؟ إنه نتيجة طبيعية لدرجة وعى المجتمع بأهمية المبدعين، ونتيجة للرعاية والتوجيه المناسبين منذ البداية.